التداول الاجتماعي للقرآن الكريم في سياق الاستلهام الهدائي

مراد قمومية
mouradkamoumia@gmail.com
طالب دكتوراه: تخصص أصول الدين
المشرف: الطاهر عامر، الرتبة: أستاذ محاضر أ
كلية العلوم الإسلامية بالخروبة، قسم أصول الدين.
جامعة الجزائر1، بن يوسف بن خدة،

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان أهمية التداول الاجتماعي للقرآن من أجل استعادة الوظيفة الأصيلة للقرآن التي أنزل من أجلها، حيث يمكننا من خلال الاتجاه الاجتماعي الهدائي للتفسير تفعيل هذه الوظيفة للعودة بالقرآن إلى الحياة على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي، وتعد في هذا السياق تجربة عبد الحميد بن باديس تجربة رائدة استلهم من خلالها القرآن وقدمه للتمثل والاقتداء والتداول في إطار رؤية إصلاحية واقعية، استثمر فيها حركية القرآن وقدرته على مسايرة الأزمنة وتلبية احتياجاتها ومواجهة تحدياتها، شرط أن تجد الإنسان الذي يتمكن من امتلاك القدرة على التدبر الهدائي والقدرة على تنزيل الآيات على الواقع.

الكلمات المفتاحية: التداول الاجتماعي، التفسير الاجتماعي، الاستلهام الهدائي.

Abstract:

The aim of this research is to explain the statement of the importance of social circulation of the Quran, as to restore the original function of it the Quran. So,Where we can through the social Straightpath of interpretation, applied this function to restore the place of " Quran" In the life of the individual, and, also the social level.

In this context, the experience of “Ibn Badis” is considered as a summit modal, that he inspued for modaling and trading within realistic reformist vision. He invested the movement of Quran and it's ability to keep pace with time, and, meet their needs and face their challenges, by condition, who possesses the person who has ability of straightpath thought and, applying verses on reality.

مقدمة:

وظيفة القرآن الأولى والدائمة والأبدية إحياء الإنسان بالهداية والإرشاد ليقدم له أقصر الطرق إلى السعادة بآفاقها الواسعة دنويا وأخرويا، ولا بد ليرقى القرآن وظيفته الإنسانية أن يتصدر ليكون محور حركة المسلم في شعاب الحياة وهو يمارس اهتماماته اليومية ويواجه مشكلاته الحياتية، كي يتم اختصار الطريق إلى الإيجابية والفاعلية، ولأجل المساهمة في الدفع بعجلة الحركة الإيجابية نحو التغيير الاجتماعي فالحضاري المنشودين.

ومن متطلبات الحاضر الملحة العمل على التداول الاجتماعي للقرآن بالاشتغال به على مستوى الضمير الإنساني طلبا لثمرته في تشكيل التصور وتأطير السلوك وتنمية الحياة بالرُّشد القرآني ونوره.

1) مفهوم التداول الاجتماعي للقرآن الكريم:

يقصد بالتداول الاجتماعي للقرآن بأنه: الانخراط العملي في تصريف آيات الكتاب في السلوك البشري العام، تلاوةً وتزكيةً وتعلّماً، حتى يستقيم المجتمع كله على موازين القرآن[1]، وهو اشتغالٌ بالقرآن في جو القرآن ذاته، لا اشتغالا بما حول القرآن، فجل التفاسير القديمة والمعاصرة –إلا القليل منها- اشتغلت بما حول القرآن فانصرفت إلى المباحث اللغوية والتاريخية والكلامية والعلمية... على حساب المباحث الاهتدائية التَمَثُّلية الاقتدائية.

إن حفظ القرآن وإتقان أحكام التجويده وتفسيره والترغيب في الاستماع إليه والتأكِيد على تدبره ما هي إلا مقدمات ضرورية للاشتغال بالقرآن في مستوى التداول الاجتماعي، والذي يتوصل إليه بتفعيل عنصر الاستلهام الهدائي، (والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن وقراءته والاطلاع على علومه، إن هذا ليس "جو القرآن"... الحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جو، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع، وفي اهتمامات كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن... وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن ينشئ الإسلام في نفسه وفي نفوس الناس، وفي حياته وفي حياة الناس)[2].

يفصح القرآن عن مهمته في الأرض مع الناس في آيات عديدة منها قوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [آل عمران: 164]، وقوله: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: 15، 16].

فوظيفته المركزية مع النفوس يزكيها وينيرها ويهديها، ولذلك كان نزوله الأول مفرقا على مكث: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } [الإسراء: 106]، فالمكث هنا من أجل الاستفادة التدريجية من الآيات، ولأجل دمج تلك المحتويات التوجيهية الراشدة على مهل بما يعطيها مساحة الزمن الكافية لتشكّل التصورات الفكرية والسلوكات الاجتماعية والثقافة الإنسانية التي تنهض بالإنسان وتبقيه في مستوى إنسانيته.

2) مفهوم الاستلهام الهدائي:

مصطلح الاستلهام مصطلح غير متداول بشكل واسع، تم اختياره هنا لأنه يجمع بين حسن الفهم، والاجتهاد في الاستمداد، والتهيؤ للتمثل.

وأما الهدائي: فمشتق من الوصف الذي وَصَف القرآن به مهمته الأولى والرئيسة مع الناس {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2]، {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإسراء: 9]، {..قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} [الجن: 2].

ونقصد بالاستلهام الهدائي : "التدبر القلبي المتأني الممتزج بالامتلاء الروحي بالمعنى المتوصل إليه، طلبا للاستشفاء النفسي والتنمية السلوكية، قصد استقراره في الثقافية العملية للمجتمع"، فهو يحمل في نواته إرادة التمثل السلوكي والتفعيل الاجتماعي والتعديل الثقافي.

فالاستلهام يتجاوز الكشف عن معاني القرآن إلى التفاعل به ومعه ومع أحداث ويوميات الحياة، بحيث يتحول القرآن إلى محرك للحياة الشخصية والاجتماعية والثقافية والحضارية إلى آفاق راقية للحياة الإنسانية والكونية، وهو مفتاح الامتلاء الذاتي والتداول الاجتماعي، ومنه يستمد القرآن والتفسير حركيتهما الاجتماعية.

والاستلهام الهدائي لا يقتصر على المفسر وحده، وإنما يمكن لكل مسلم أن يمارسه منطلقا من معرفته البسيطة باللغة العربية التي تمكنه من فهم المعاني المباشرة التي لا تحتاج إلى تأويل، أو منطلقا من اعتماده على مراجعة أحد كتب التفسير المتفق على مرجعيتها، ثم ممارسة التفاعل القلبي مع المعاني الحاصلة لديه، متعهدا لنفسه بها حتى تستقر آيات القرآن في شكل توجيهات مقدسة، تتبناها النفس لتشكل ثقافة المسلم، وتُتَرجم في سلوكه الفردي والجمعي أثناء حركته في شعاب الحياة.

3) التداول الاجتماعي واتجاهات التفسير الحديثة:

اتجاهات التفسير القديمة تتمثل في: الاتجاه اللغوي، الاتجاه الأثري، الاتجاه العقلي، الاتجاه الفقهي، الاتجاه الإشاري، وتوسعت الاتجاهات في العصر الحديث إلى مجالات أخرى أولاها المفسرون اهتمامهم أشهرها: الاتجاه العلمي، الاتجاه الموضوعي، والاتجاه الاجتماعي الهدائي، وهاته الثلاثة الأخيرة هي الاتجاهات التي نشأت استجابة للتحديات التي واجهتها حركية القرآن منذ فجر العصر الحديث واستمرت إلى اليوم: التحدي الداخلي ممثلا في ضعف العالم الإسلامي وتخلفه، والتحدي الخارجي ممثلا في الغزوين الفكري والسياسي الغربي.

وقد كانت الاتجاهات الثلاثة للتفسير تعمل على استعادة العالم الاسلامي لتوازنه بشأن تثبيت عقائده، وبناء تصوراته، ودفع عجلته نحو النهوض والتطور، ثم ارتخت تلك الوظيفة في الوقت الراهن كما يلي:

1- بالنسبة للتفسير العلمي ما تزال قوته كامنة في تأكيد وإثبات معجزة القرآن، وأن القرآن لا يناقض الحقائق العلمية الكونية الثابتة مما يعني التأكيد على مصدريته الإلهية، وهذا يصلح مع المشككين وضِعاف إيمان أو مع غير المسلمين، ولكن المسلم المعاصر لم تعد لديه مشكلة مع الثقة بالقرآن على العموم، وإنما في التحرك بالقرآن، وهي وظيفة لا يستطيع التفسير العلمي تأديتها بمفرده.

ما يزال الاتجاه العلمي رابضا في تفسير الحقيقة العلمية التي أنتجها العلم الغربي غالبا، ورغم أهميتها من ناحية ترسيخ ثبات المعجزة القرآنية، إلا أنه بالطريقة التي يتناول بها العلم أصبح تكديسا لا يصنع به في البيئة الإسلامية المناخ العقلي والعلمي الذي تنمو فيه العلوم وتتطور[(3)]، لقد أنزل القرآن لصناعة المناخ الفكري المناسب لانطلاق العبقرية العلمية لدى المسلم، من أجل أن يكتشف ويُطوِّر تحقيقا لواجب الاستخلاف، ولم ينزل القرآن ليعكف على اثبات صدق الحقيقة العلمية التي أنتجتها البيئة العقلية لأمة أخرى، وإن كان تضمنها فعلا فلأجل استثمارها في سياقات تجديدية لا لأجل الوقوف عندها والاقتصار عليها.

2- والتفسير الموضوعي يهتم ببلورة المفاهيم المتكاملة عن موضوعات القرآن وكلماته، أي يركز على تدقيق المفهوم القرآني والتفرقة بين مصطلحاته، وأهميته تكمن في ضبط التصورات للقرآن ومفاهيمه عن الإنسان والحياة والكون ضبطا دقيقا.

وهو قد انخرط في معظمه في سلك الدراسات الأكاديمية التي وإن كانت تنتج المعرفة غير أنها تقتل حيويتها وفعاليتها، فالأسلوب الأكاديمي بجديته وصرامته لا يصلُح لبث الحقائق القرآنية لدى المسلمين عامة، ولا يملك مؤهلات التأجيج الوجداني للتلقي والعمل، إنه مهتم بإقناع الفكر بعيدا عن العاطفة أين تتحول المعاني على يديه إلى زيادة علم مكدس، أو مجرد متاع فكري، فالمعرفة وحدها لا تكفي للانطلاق والعمل.

3- أما التفسير الاجتماعي الهدائي –وهو الاتجاه المناسب لتولي عملية التداول الاجتماعي- فيُعَدُّ الاتجاه الغائب عن الساحة المعاصرة، وتكاد تكون وظيفته معطلة تقريبا، ففي الجزائر مثلا منذ تجربة عبد الحميد بن باديس (1359هـ /1940م) من خلال تفسيره "مجالس التذكير" لم نرى تجربة جديدة أو مماثلة تقدم القرآن في سياق هدائي مستفيدة من الاتجاهات القديمة والحديثة، أما في العالم الإسلامي ككل فنجد التجربة الوحيدة التي تصلح نموذجا معاصرا للتداول الاجتماعي في سياق هدائي اجتماعي، تجربة محمد متولي الشعراوي (1418هـ/1998م) التي وإن طبعت في كتاب[4] فإن أصلها دروس شفاهية كانت تقدم لجمهور مباشر، وما تزال يعاد بثها في شكل برنامج تلفزيوني.

4- أما المنتج التفسيري العام على كثرته وتنوعه فقد توسَّع القول النظري فيه على حساب البث الهدائي والممارسة العملية ، وليس القصد هنا عدم الاحتياج إلى تفاسير جديدة للقرآن، وإنما المطلوب التوازن، أن يتماشى التفسير بكامل اتجاهاته مع إثارة الجانب العملي الذي يُعد مقصد عملية التَنَزُّل القرآني.

صحيح أن القرآن مبهر، ولكن الهدف النهائي الذي أنزل من أجله لا يتوقف عند حد الإبهار، فما الانبهار به سوى باب لفتح القلوب له ليصوغ النفوس بهدائيته وخيريته، وأما أن يبقى الانبهار انفعالا مؤقتا يبعث على الإعجاب ثم ينطفئ من قريب دون أن يكون له استمرار في بناء السلوك الفردي والجماعي والاجتماعي فذلك مما لا يحقق التحقق بالقرآن.

وصحيح أيضا أن قراءة القرآن مطلوبة شرعا لنيل الأجر والثواب، ولكنها في النهاية ما هي إلا باب لتنفتح به البصيرة وتتحقق به الذات، فالتوقف عند ممارسة القراءة العابرة الباردة أو الانفعال الآني أو المؤقت المكتفي بفترة ظرفية قصيرة ليس هدفا نهائيا شرعت لأجله تلاوة القرآن والمداومة عليها وإن كانت مطلوبة باعتبارها المدخل الذي يبقينا قريبين من القرآن الكريم.

إن القرآن الذي تحتاجه حياتنا اليومية في كل وقت وفي كل عصر هو القرآن الذي يُحرك الحياة، سواء حياتنا الداخلية النفسية القلبية والفكرية، أو حياتنا الخارجية السلوكية الاجتماعية والجماعية، فمما يؤسف له أن الفكرة القرآنية لم تعد تلمس مباشرة ضمير الإنسان المسلم المعاصر –إلا قليلا- رغم الانتشار الواسع لتداول القرآن حفظا وقراءة وتجويدا وتفسيرا وطباعة وعبر وسائل الإعلام.

لقد عدنا بالقرآن في كثير من الدراسات القرآنية والتفاسير المعاصرة على كثرتها وتنوعها إلى عهد الجمود والتقليد، أي ما قبل حركات الإصلاح الحديثة[5]، يوم كان القرآن يُمثِّل لأصحابه مصدرا للمعرفة أو نموذجا جماليا أو شاهدا لغويا وبلاغيا، فالآية أصبحت تساق لغرض تعليمي مجرد من هدائيتها، أو تساق برهانا يفحم الخصوم أو يثير الدهشة

أو الإعجاب[6]، وهذا ما ينزلق إليه التناول المعاصر للتفسير العلمي أو للدراسات الأكاديمية اللغوية والبيانية والموضوعية، بتنا نفتقد كثيرا للآية القرآنية التي تساق للاستقرار في ضمير الإنسان، شاقة طريقها إلى أعماقه لتنير الزوايا المظلمة داخله، وتنفخ في الأجزاء الميتة منه الروح، وتبعث فيه حياة جديدة ومتجددة.

4) وظيفة المفسر:

التفسير نوعان: نوع يهتم بالنظر في أساليب القرآن ومعانيه، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام، وامتيازه على غيره من القول، والإعراب، وتتبع القصص، والأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها، والكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين، والمواعظ والرقائق[7].

ونوع يهتم بفهم كتاب الله من حيث هو دين، يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له وأداة أو وسيلة لتحصيله[8].

وتبعا لهذا التقسيم نجد المفسر الذي يكتفي بإزالة اللبس عن الألفاظ والعبارات ويبحث المسائل ويحققها، وإن كان هذا العمل يعدُّ مدخلا ضروريا للاستفادة من القرآن، ولكنه لم يعد كافيا في ظل غياب فعالية القرآن في مواجهة مشكلات الإنسان والحياة، وتبعا لذلك فإن وظيفة المفسر لم تعد قاصرة على كشف اللبس عن الألفاظ والعبارات واستخراج المعاني والأحكام، وإنما تتعدى إلى بذل الوسع لإحداث وَصْلة بين واقع الإنسان بإكراهاته وتجلياته وبين القرآن بهداياته وإرشاداته، ومن هذا المنطلق فإن (المفسر الحقيقي للقرآن هو ضمير الأمة الحي، وصوتها العالي الذي يُعبر عن آمالها وآلامها، ويسعى جاهدا لاستخلاص العلاج لأدوائها من القرآن الكريم)[9].

فالمفسر مطالب بحكم منزلته العلمية ومسؤوليته الرسالية أن يكشف عن النماذج القرآنية التي وضعها للإنسان، وأن يحاول تنزيل تلك النماذج في الواقع، وأن يساعد الناس على فهم القرآن وتمثله في واقعيهما الشخصي والاجتماعي، فإنه إذا كان بيان المعنى متوقف على مراعاة السياق الدلالي للألفاظ والتراكيب فإن شرط التداول الاجتماعي متوقف على إبراز ما يحتاجه المتلقي المعاصر في سياق مُوحٍ، كأن المتلقي يتلقى تنزلا جديدا للقرآن.

5) مُمَكِّنات التداول الاجتماعي، "مجالس التذكير" نموذجا:

قد لا يتمكن المسلم غير المتخصص دائما من استلهام المعاني من القرآن مباشرة لعوائق عديدة كالغفلة أوانصراف القلب بالشواغل أوعدم امتلاك الأدوات... وقد لا يتمكن من تفعيل الجانب الاقتدائي منها بنفسه ويتحول بها إلى التمثل والعمل، ولذلك نشأ اتجاه التفسير الاجتماعي الهدائي، الذي يُعنى بتقديم القرآن في سياقات موحية تبعث على التأثر بالآيات والتأهب للتبني العملي.

يعد محمد عبده (1323هـ /1905م) رائد إرساء الاتجاه الاجتماعي في التفسير، الذي أحدث من خلاله هزة في طرق التفسير السابقة[10]، واتبعه في ذلك تلاميذه وساروا عليه، منهم: محمد رشيد رضا(1354هـ /1935م)، وأحمد مصطفى المراغي(1371هـ/1945م)[11].

فأما رشيد رضا فكان ملازما لدروس محمد عبده في التفسير وأحرصهم على تلقيها وضبطها، فكان بحق الوارث الأول لعلمه، وظهرت ثمرة ذلك في تفسيره "تفسير القرآن الحكيم" الذي اشتهر فيما بعد باسم "تفسير المنار" نسبة إلى مجلة "المنار" التي كان يصدرها[12].

وأما المراغي وإن كان لم يلازم أستاذه محمد عبده ملازمة طويلة إلا أنه تأثر تأثرا عميقا بروح منهجه في التجديد، وكان تفسيره دروسا مستمرة استمع إليها الناس على اختلاف طبقاتهم، وأذيعت على بلدان عدة، ثم جمعت وطبعت[13]، واشتهرت بعد ذلك باسم "تفسير المراغي".

وممن نهج هذه الطريقة الإصلاحية بالتفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس[14] الذي قدم من خلال جلوسه لدروس التفسير تفسيرا كاملا للقرآن على مدار ربع قرن، وتعجل به من خلال إلقائه دروسا شفاهية قَصْد تحقق ثمرته في أبناء جيله، خِدمة لمشروعه الإصلاحي أنذاك، وما وصلنا منه ما هو إلا مقالات يسيرة كان يدونها افتتاحية لمجلته "الشهاب" متى ما سمحت له الظروف والأوقات، دونها تحت عنوان: "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"[15]، كان يرجو من خلالها أن تصل أفكاره الإصلاحية المستلهمة من القرآن إلى الذي لا يمكنهم حضور جلسة التفسير.

وسنقدم هنا ممكنات التداول الاجتماعي للقرآن الكريم من خلال تجربة ابن باديس المجسدة في "مجالس التذكير" قصد استيحاء التجربة :

1- قبل تقديم التفسير للناس على المفسر أن تكون له تجربته الذاتية الحقيقية المتماهية مع القرآن، والمتجاوبة معه في هداياته وإرشاداته، ويوضح النص الموالي جوانب من حال ابن باديس مع القرآن: (وأما حظ التجربة، فوالله الذي لا إله إلا هو، ما رأيت- وأنا ذو النفس الملأى بالذنوب والعيوب- أعظم إِلاَنَةً للقلب، واستدراراً للدمع، وإحضاراً للخشية، وأبعث على التوبة من تلاوة القرآن وسماع القرآن)[16]، فالامتلاء الذي يناله المفسر من تأمل القرآن هو الذي يفيض منه على المتلقين، فتكون لكلماته الشحنة الروحية التي تكهرب الجموع، وتنقل إليهم المعاني حية قابلة للاقتداء والتمثُّل.

وملازمة التهيب من استسهال القول في كتاب الله فإن بقاء مراقبة سلامة القصد والنية مرتبط ببقاء التهيب، ذلك التهيب الذي لا يمنع المفسر من خدمة الناس بكتاب الله وإنما يحميه من النزوع الذاتية والمذهبية، فلا يجعل القرآن مطية ينصر به رأيه أو مذهبه، ويقول ابن باديس حاكيا عن تجربته الذاتية: (وإذا نظرنا إلى قصورنا وخطورة مقام الكلام على كلام الله- تعالى- أحجمنا، وإذا رأينا إلى فضل الله وثقتنا به وحسن قصدنا- إن شاء الله تعالى- في خدمة كتابه أقدمنا، وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا، فنحن نقدم معتمدين على الله تعالى، سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا إلى حسن القصد، وصحة الفهم، وصواب القول، وسداد العمل)[17].

وفي ظل ذلك الجو النفسي الذي يعيشه المفسر تجاه القرآن بين التهيب المعتدل والتجربة الشخصية المتماهية ومعايشة آلام الواقع وتحدياته تنبثق عنه التوجيهات والإرشادات، ويتحول إلى قناة تعيد التنزُّل القرآني من جديد.

2- تحويل التفسير إلى مشروع إصلاحي واضح المقاصد، وقد أفصح ابن باديس عن ذلك في عدة نصوص صريحة، منها قوله: (وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا، ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق،

ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى)[18]، ويؤكد مسلكه في تربية النشء على القرآن بقوله: (فإننا- والحمد لله- نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها)[19]، ويواصل في السياق ذاته: (لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوَّع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه)[20].

إن المشروع الإصلاحي المعتمد أساسا على فهم القرآن وتفهيمه يتحول إلى وظيفة المؤسس لحركية الحياة بالقرآن، فتتحقق به الأنفس ويغدو تداوله سلسا وتلقائيا في المجتمع.

3- جعل المركزية للقرآن في إنتاج المعرفة الشرعية العلمية والعملية، أن تتم عملية تصحيح التصورات والمفاهيم الشرعية في الميدان الواقعي بالاستمداد المباشر من القرآن ما دامت مُعلَنة فيه، ثم تأتي الاستعانة بالسُنَّة في توضيح وتفصيل ما لم يُفصل، ولتكن في الأخير كتب التراث معينة على الفهم والتوسع، لا أن تكون أساس التكوين والبناء بعيدا عن القرآن.

ذكر عند تفسيره لمعنى الحكمة في قوله تعالى:{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ.. } [النحل: 125]، (هدتنا الآية الكريمة إلى أسلوب الدعوة، وهو الحكمة، وتجلت هذه الحكمة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فعلينا أن نلتزمها جهدنا حيثما دَعَوْنا، ونقتدي بأساليب القرآن والسنة في دعوتنا، فبها يحصل الفهم واليقين والفقه في الدين والرغبة في العمل... فحُقَّ على أهل الدعوة إلى الله- وخصوصاً المعلمين- أن يقاوموا ما بيَّنا من جهل وجمود وإعراض وفتور بالتزام البيان للحقائق العلمية بأدلتها والعقائد ببراهينها والأخلاق بمحاسنها والأعمال بمصالحها)[21].

وهذا الاستمداد من القرآن الكريم أساسٌ في بناء الشخصية القرآنية التي تستمد حركيتها من إحساسها المرهف بأنها أوامر الله المباشرة لها، وهذا الإحساس لا تبنيه كتب التراث لتلبُّسِها بروح وأنفاس الإنسان، وما فعله ابن باديس خلال ربع قرن من الاشتغال بالتفسير الهدائي تدريسا شفاهيا إنما كان يصب في هذا القصد، أن تكون التصورات الفكرية والسلوكية مؤصَّلة من تعاليم القرآن مباشرة.

4- ربط العلوم الإنسانية بالتأصيلات القرآنية لها، إذ العلوم الانسانية مهمتها النهائية بناء الإنسان، ومهمة العلوم التجريبية والتقنية بناء المدنِيَّة لتسهيل حياة الإنسان، وما لم تكن العلوم الإنسانية مؤصَّلة بالقرآن فإنها تؤدي مهمتها بطريقة مشوهة، وتنتج إنسانا بعيدا عن مقاصد الاستخلاف التي أرادها له خالقه على وجه الأرض، وهذا يتحقق عندما يتحقق الإيمان بأن القرآن (فيه من علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة في الدنيا والأخرى، وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام، وكليات السياسة والتشريع، وحقائق الحياة في العمران والإجتماع، ونظم الكون المبنية على الرحمة والقوة والعدل والإحسان)[22].

والتشظي المشهود على مستوى عالم المعرفة الإنسانية في البيئة الإسلامية والإشكالات الناتجة عن ذلك مصدرها إبعاد القرآن عن دوره الطبيعي في كونه مصدرا مرجعيا مهيمنا في هندسة المعرفة وإنتاجها، ولن نستطيع تأطير إنتاج

المعرفة بالقرآن وتأصيلها به ما لم يكن القرآن حاضرا في حياتنا قراءة وتفهما تنزيلا، (أن نقرأ القرآن ونتفهمه حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا ومعانيه نصب أعيننا لنطبق آياته على أحوالنا وننزلها عليها كما كانت تنزل على الأحوال والوقائع فإذا حدث مرض قلبي أو اجتماعي طلبنا دواءه في القرآن وطبقناه عليه)[23]

5- بيان الجانب العملي من الآية، أو كيف الاقتداء بها؟ وهو أمر يعنون له ابن باديس أثناء تفسيره بعناوين صغيرة تصرف تركيز القارئ إليها، وتجنبه الضياع وسط الفقرات التفسيرية الطويلة التي تتنقل به بين مباحث عدة، وتضيع عليه إدراك الجانب العملي من الآية.

ومن تلك العناوين الفرعية التي تُبرِز للمتلقي الجوانب العملية في حلقات تفسير مجالس التذكير ما يأتي : "أدب واقتداء"[24]، "استفادة"[25]، "اهتداء"[26]، "اقتداء"[27]، "اهتداء واقتداء"[28]، "تحذير"[29]، "تحذير وارشاد"[30]، "عبرة وتحذير"[31]، "أحكام وتنزيل"[32]، "ثمرة"[33]، "إمكان العمل بالآية لجميع المسلمين"[34]، "ترغيب وترهيب"[35]، "سلوك وامتثال"[36].

وتمتد هذه مثل العناوين ومضامينها على كامل الحلقات التي كتبها ابن باديس وخلفها بعده وهي تحمل بين طياتها تلك النزعة الهدائية المركزة التي كان يفعِّل بها القرآن مع الواقع، ويُطلعنا عن قرب على منحاه التفسيري في جلساته الشفاهية التي كان بها في احتكاك مباشر مع الجمهور والواقع، وكيف كان يراقب حركة الواقع بتلك الاستلهامات الهدائية ويبني بها الأجيال على مدى ربع قرن من الزمان.

6- جعل جلسات التدبر على مكث استلهاما من منهج القرآن ذاته إبان تنزله، حتى يتمكن القلب من التفاعل بالآية ومن ثَمّ تستقر في الضمير، ولعل صنيع ابن باديس يصب في هذا الباب، فهو يختار آيات يسيرة يقدمها للقارئ كل شهر في مجلة الشهاب مع بعض التوجيه الهدائي، كان بإمكانه أن يعالج طول الفترة بين الأعداد –فقد كانت مجلة شهرية– ويختار آيات كثيرة ليفسرها، لكنه لم يفعل، بل يكتفي ببضع آيات ويركز المعنى الاهتدائي حولها، وينزلها على الواقع النفسي والاجتماعي، ويوجِّه إلى وجه العمل بها في الحياة.

7- تناول اتجاهات التفسير الأخرى في سياقات اجتماعية هدائية، تُقرِّب القرآن من المسلمين بشكل انتمائي عملي، فمثلا عند تطرق ابن باديس لتفسير آية في سياق مكتشفات علمية حديثة، وهي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا } [الإسراء: 12] وبعدما بيَّن أن علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر– كالأرض– كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحراره ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برد.

وَجَّه الكلام عنها كما يلي: (لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه – صلى الله عليه وآله وسلم– وبرهاناً لدينه على البشر مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان، فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفاً أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفراداً قليلين من علماء الفلك، وأن حمو جرمه أولاً وزواله بالبرود ثانياً ما عرف إلا في هذا العهد الأخير)[37].

وبيّن في مواضع أخرى كيف أنه سبحانه (خلق لنا ما في السموات وما في الأرض جميعاً وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا، وأعلمنا هنا أن في هذه المخلوقات أسراراً بينها القرآن واشتمل عليها، وكان ذلك من حجته العلمية على الخلق، فكان في هذا ترغيب لنا في التقصي في العلم والتعمق في البحث لنطلع على كل ما نستطيع الإطلاع عليه من تلك الأسرار: أسرار آيات الأكوان والعمران وآيات القرآن فنزداد علماً وعرفاناً، ونزيد الدين حجة وبرهاناً، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم، فيعظم شكرنا للرب الكريم المنعم)[38]. فلم يقف هنا عند الحقيقة العلمية ليربطها بالآيات وينتهي عمله عند ذلك، بل يهيء النفوس والأذهان ويبعث فيها الاستعداد لتولي مهمة اكتشاف تفاصيل علمي العمران والأكوان بالاستناد إلى آيات القرآن، لتتيسر حياة الإنسان بتلك المكتشفات في جو يتحقق به التعبد والشكر.

فعلى المفسر أيّاً كان الاتجاه الذي سار فيه ألا يقصر عمله على التحقيق العلمي، والتناول النظري، وأن يقدم ما يقدمه من تفسير في سياق هدائي يجذب إلى الاقتداء والتمثل، ويساهم في تداول معاني القرآن في جو الثقافة الرائجة التي تحكم سلوك الناس وتؤطرها بالقدوة والاحتكاك والمحاكاة، وبقدر ما يُبَثُّ من معانٍ قرآنية في الثقافة العملية التي يعيش بها المجتمع ويتنفسها كما يتنفس الأكسجين، بقدر ما يساهم في تغيير الثقافة السلبية المتحكمة في أنماط تفكيره وأضرب نشاطاته، وبذلك يتم التحول التدريجي للمجتمع من ليغيِّر ما بنفسه من محتويات ثقافية سلبية.

خاتمة:

يتحقق التداول الاجتماعي بمستويات عليا عندما يتحول القرآن إلى مشروع للإصلاح والتغيير، ويرتكز التفسير فيه على الموازنة بين الكشف عن المعاني وبذل الوسع للتفعيل الاجتماعي، ولو أن عدة مفسرين يشتغلون ببث التفسير هدائيا ويتوزعون على الجماهير بما يغطي الاحتياج، ويستثمرون في وسائل الإعلام الحديثة، لأمكن التحول إلى التداول الاجتماعي الإيجابي الفعلي.

---

1 – فريد الأنصاري: رسائل تلقي القرآن الكريم، موقع: شبكة فلسطين للحوار، https://www.paldf.net (تاريخ الدخول: نوفمبر 2017).

2 – انظر سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة السابعة عشر 1412هـ، 2/ 1016–1017.

3 – انظر مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1388هـ/ 1969م، ص26.

4 – انظر عبد القادر محمد صالح: التفسير والمفسرون في العصر الحديث، دار المعرفة، بيروت (لبنان)، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م، ص219.

5 – هي الحركات الاصلاحية التي انطلقت من صيحات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا وشملت العالم الاسلامي ككل بعد ذلك، قامت هذه الحركات الاصلاحية بمحاربة الاستعمار والجهل والتخلف، وحاولت صياغة المجتمع المسلم الذي يكون في مستوى رسالته السماوية استخلافا وشهودا وتحضرا.

6 – انظر مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر معاصر، بيروت–لبنان / دار الفكر، دمشق – سورية1431هـ/ 2002م، ص 60.

7 – تفسير المنار، 1/ 17–18.

8 – المرجع نفسه، 1/ 17.

9 – عماد محمود عبد الكريم: حسن البنا ومنهجه في التفسير، دار النشر والتوزيع الإسلامية، مصر، الطبعة الأولى 1425هـ/ 2004، ص13.

10 – انظر محمد حسين الذهبي التفسير والمفسرون،مكتبة وهبة، القاهرة ج2/ 401.

11 – انظر الخالدي: التفسير الموضوعي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى1418هـ/ 1997م، ص25.

12 - انظر مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1421هـ- 2000م، ص 383.

13 - انظر الذهبي: التفسير والمفسرون، 433/2.

14 - من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر منذ بدء قيامها سنة 1931 إلى وفاته. ولد بقسنطينة، وتعلم بتونس. حج سنة 1912 م، وعاد، فأقام ببلده يعلم النشء الجزائري ويعده من أجل المستقبل. أصدر عدة صحف ومجلات أشهرها مجلة "الشهاب" وقد صدر منها في حياته نحو 15 مجلدا تعد سجلا حافلا لنهضة الجزائر الحديثة فيما بين الحربين العالميتين، وكان شديد الحملات على الاستعمار الفرنسي، وقد امتد نشاطه إلى المدن الجزائرية الأخرى كالجزائر العاصمة ووهران وتلمسان وغيرها. وأنشأت جمعية العلماء في أيام رياسته كثيرا من المدارس، من آثاره "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" في تفسير القرآن، وهو مجموع دروس التفسير التي كان يلقيها على مريديه في قسنطينة. انظر عادل نويهض: معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر» مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، 1409هـ/ 1988م، ج1/ 259- 260.

15 - انظر آثار البشير الإبراهيمي، 2/ 253.

16 - آثار ابن باديس (1/ 148-149).

17 - المرجع نفسه، 1/ 163.

18 - المرجع نفسه، 1/ 300.

19 - المرجع نفسه، 2/ 142.

20 - المرجع نفسه، ، 1/ 410.

21 - المرجع نفسه، ،1/ 184-185.

22 - المرجع نفسه، ،1/ 143.

23 - المرجع نفسه، ،1/ 418.

24 - انظر عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية- الجزائر، الطبعة الأولى 1402هـ/1982م، ص52، 53.

25 - المصدر نفسه، ص54.

26 - المصدر نفسه ، ص66.

27 - المصدر نفسه ، ص67.

28 - المصدر نفسه ، ص68،71، 72.

29 - المصدر نفسه ،ص71، 73، 192.

30 - المصدر نفسه ، ص159.

31 - المصدر نفسه ، ص160.

32 - المصدر نفسه ، ص72.

33 - المصدر نفسه ، ص74.

34 - المصدر نفسه ، ص88.

35 - المصدر نفسه ، ص175.

36 - المصدر نفسه ، ص184، 187، 193، 196.

37 - آثار ابن باديس،1/ 195.

38 - المرجع نفسه، 1/ 387.